رمادٌ للريح ...

قصة للكاتب الكولومبي ك. تيليز

ترجمة : حصة منيف

كانت لهجة الرجل لطيفة فيها رنة اخلاص وهو يحاول عبثا ولنصف ساعة على الاقل ان يوضح مايريد ان يقول . جلس الرجل على جذع شجرة عريض قرب باب المنزل دون ان يخلع قبعته البنية المتسخة المصنوعة من اللباد الرخيص الثمن . ومضى يحدق في الارض وهو يتابع حديثه .

كان جوان يعرفه معرفة حسنة . انه ابن «سيمون اريفالو» وزوجته لورا . وهو معروف منذ حداثته بطباعه الشرسة . ولكن احدا لم يكن ليتصور انه قد يفعل مايشاع عنه الان لاصدقاء والديه القدامى في القرية تلك . لم يصدق جوان كل ذلك ، ولكن ، ها هو الان يقول له : « من الافضل ان ترتحل من هنا » .

ومضى يردد ذلك دون ان يرفع ناظريه عن الارض ، اما جوان فلم يحر جوابا .

كان النهار يبزغ ، وبدت غيوم كثيفة تنذر بمطر غزير وانبعث الهواء حارا ، وسرح جوان بناظريه عبر قبعة الزائر الى الحقول ، حقول خضراء ثم صفراء ، ثم صفراء ناضجة ثم خضراء ثانية فخضراء يانعة ثمشاحبة. كان منظر الوادي يبدو لطيفا من حيث يقف ، حيث يمكنه ان يرى رؤوس السنابل الخضراء تتماوج مع الريح ..

وعلا صوت زوجته واضحا من المطبخ قائلة له : « من هناك » ؟

ولكن جوان لم يجب .

كان الزائر مازال جالسا مطاطيء الرأس . ومضى الزائر يداعب قطعة صغيرة من الطين بفردة من حذائه المغبر ثم يداعبها بالاخرى ويضغطها بعناية ويبسطها مع التربة . وعاد الى القول :

« من المستحسن ان ترتحل »

كان قد رفع راسه في هذه المرة . ونظر اليه جوان بتفكير : « كم يشبه اباه ، فيما عدا عينيه اللتين تبدوان في لون اوراق التبغ ، كعيني امه »

واتى صوت زوجته من قرب قائلة : « من هناك ؟ »

ومن ثم بدت كارمن واقفة بالباب ا لذي يطل على الرواق الامامي وهي تحمل طفلها بين ذراعيها . نهض الرجل عن جذع الشجرة ونفض مقعده بنطاله باحدى يديه بصورة اوتوماتيكية ، ومن ثم خلع قبعته فبدا شعره غليظا اسود، زيتيا وقفز من تحت القبعة كانما اخلي سبيله . كان يبدو كان مشطا لم يمسه منذ عهد بعيد .

قال الزائر : « اسعدت صباحا ايتها السيدة كارمن » .

كان الطفل يداعب عنق امه كانما يريد ان يفرس انامله في نعومة ذلك العنق ، انه في الشهر الثاني من عمره بعد وهو مازال يتغذى بحليب امه ويرتدي ثوبا متسخا من الصوف الملون .

وقف جوان بصمت في حين كان يبدو الضيق على الزائر . ومرت لحظات صامتة لم يكن يسمع فيها سوى سكون الريف ، ومن خلال هذا السكون ينبعث ضجيج الطبيعة ، ذلك الضجيج الخفي المتنوع ، اما الوادي فكان يخفق في تجاوب مع الصباح الكالح ، الا ان جوان كان يفكر : « ولكن الشمس ستبزغ عما قريب » .

قال الزائر : « حسنا ، انني ذاهب » .

تصافح الرجلان ، في حين كانت كارمن تقف صامتة تحدق في زوجها ، ارتدى الزائر قبعته ثانية واستدار ثم مشى ببطء ناحية باب السياج ، الذي يبعد مسافة عشر او خمس عشرة ياردة عن البيت، فتح الباب بعناية فارسلت مفاصله الصدئة ، التي صنعت لدى حداد القرية ، صريرها المعتاد رغم تلك العناية .

« من الافضل لهم ان يغادروا المكان ! »

لقد حاول ابن سيمون اريفالو وزوجته المتوفاة لورا ان يوضح الاسباب خلال مايقرب من نصف ساعة . ولكن صوته كان ينبعث في ضجيج . ثم ان كل مايتعلق بالسلطة وبالسياسة كان دوما معقدا في نظر جوان . حتى ابن سيمون اريفالو لم يكن يدرك ذلك ويتفهمه بوضوح . رغم انه اصبح الان يعمل مع السلطات ويمارس اعمالها القذرة .

قال جوان : « هذا الدنيء ، لقد قال بانهم سيأتون لاخراجنا من هنا اذا لم نرتحل خلال اسبوع »

اجابته كارمن : « عليهم ان يقتلونا »

« هذا ماقلته » اجابها جوان وقد كسا وجهه قناع من الكابة .

صمت الاثنان وذهبت كارمن الى المطبخ تحتضن ابنها بين ذراعيها في حين بقي جوان وحيدا وتسمر كشجرة في قبالة المنزل .

كانت المنطقة فقيرة ولم يبد هناك سبيل كاف لان تهتم السلطة ببيت جوان والحقول المحيطة به . انها لا تشكل اية اهمية بالنسبة لهم .. احواض صغيرة للحنطة ، بعض اكوام من البطاطا ، حديقة للخضار يخترقها جدول ماء صغير ، وهذا الجدول ، شكرا لله كما تقول كارمن، يأتي من المياه العذبة اللذيذة حقا ، من هيرتادوس . اما البيت فهو بين ان يكون بيتا وان يكون قمرة .

وطرأ لجوان خاطر ، ان على السلطات ان تعوضه عن النقود التي استدانها منذ سنين خلت لبيني المطبخ وليصنع خزان الماء المتعفن، اذا ما ارادوا الاستيلاء على المنزل . ولكن ! هل يصدق ما اخبره ابن سيمون اريفالو ، ان عليهم ان يرتحلوا ؟!.. اجل ، لقد ادلى بصوته في الانتخابات الاخيرة ، ولكن ، ماذا في ذلك ؟ من لم يفعل ؟ بعض لجانب وبعض للجانب الاخر ، ولم تكن هنالك اية مشاعر غير ودية فلا بد ان يكون هنالك جانب منتصر واخر خاسر .

اطلق جوان ضحكة خافتة وقال : « كان يحاول ان يخيفني ، ولكن لا ! لم يكن هذا ما قصد » .

وذكر حين كان في البلدة منذ اسبوع ، كان هناك شيء غريب فبعض رجال البوليس يحملون عصا بالاضافة الى بنادقيتهم ، لا باس في ان يحملوا بنادقية ، ولكن ، لم العصا ؟ هذا ماحيره . كان يرعبه ان يحمل القانون عصا في يده .

وقد لاحظ مابدا له غريبا حوله حين رفض اصحاب محل دون روميولو لينارز ان يبيعوه نفطا ، قالوا له ان النفط قد نفد . ولكنه راى النفط ينساب غليظا مشعا من الخزان الاسود عبر القمع الى الزجاجةهناك، خلف عداد النقود .

لم ينبس جوان ببنت شفة بعد ان قابله دون روميولو بوجه متجهم. لم تكن لديه رغبة في ان يتبادل الكلام مع اي مخلوق .

كان هنالك اربعة من رجال البوليس يطوفون حول السوق ، ولم يكن هناك اناس كثيرون ، اشترى بضعة اشياء ، انية فخارية للطبخ ، الواح صابون وحذاء . ومن ثم ذهب الى الصيدلية ليبتاع قليلا من الفازلين المعطر والقطن . وسأله بنفادس صاحب الصيدلية بلهجة فيها غبطة

وغموض قائلا : « الم يصادفك شيء في طريقك بعد ؟

كان جوان يهم بفتح فمه ليجيب حين اومـــأ له بنفادس ان يلتزم الصمت . دخل احد رجال البوليس وتبعه ابن سيمون اريفالو ، خبط رجل البوليس عداد النقود الخشبي بعصاه فشحب وجه بنفادس بينما كان يسرع في اعداد الاشياء التي طلبها جوان .

تساءل رجل البوليس : « ماذا يجري هنا » ؟

كان اريفالو قد عرف جوان ، الا انه نظر اليه وكان لم يره من قبـل قط . اما رجل البوليس فلم يعط بنفادس وقتا للاجابة واستدار الـى جوان وهو يحرك عصاه على جانب بنطاله قائلا له :

« انت اذن احد اولئك العصاة ! »

لابد ان وجه جوان شحب في تلك اللحظة شان وجه بنفادس . فقد شعر ان قلبه بدأ يطرق . كان يود ان يصفع رجل البوليس فهو لايملك، بكونه رجل بوليس ، الحق في ان يعترض انسانا مسالما يبتاع قليلا مـن الفازلين المعطر والقطن من الصيدلية ولا يؤذي مخلوقا ما ويخاطبه بهذه الصـورة .

قال ابن سيمون اريفالو : « اجل ! انه احد العصاة ، هو يقطن قريبا من هنا ، في درب تريس اسبجاس »

تسمر جوان في مكانه كما تسمرت عيناه على العصا الخشبية القصيرة ذات العقد . كان للعصا ثقب في احد طرفيها حيث علق شريط جلدي. وبدت كاصبع طويل في حين بدت عقدها وكأنما تورمت بالروماتيزم . مضت العصا تصر على قماش البزة العسكرية الخشن بينما همهم رجـل البوليس متوعـدا .

قال اريفالو : « اجل ، ولكنه احد الهادئين منهم ، انني اعرفه ».

اجاب رجل البوليس : « سنرى ، سنرى في ذلك ، انهم جميعا جراء»

وارتسمت على وجهه ابتسامة تهكم وتابع : « لن يكون هنا من يتردد على هذا المكان ! هل تسمع يا بنفادس ؟! وانت ياهذا ؟! »

خرجا ، وشعر جوان ان حلقه يجف . التقط اللفة من فوق عـداد النقود وبحث في جيبه عن خمس واربعين كنتافوس ، وهي ثمن ماشترى ثم اودع بنفادس الذي كانت يداه ماتزالان ترتجفان وعلا وجهه اصفرار وشحوب كانما اعتراه تشنج مفاجيء .

لقد جاء التهديد اذن الان في شخص ابن سيمون اريفالو . وتذكـر جوان ان سيمون اريفالو كان صديقه ، ولم يكن ابنه يبدو سيئا حقـا كان يحلو له ان يطوف في البلدة ويتحدث فيما يسمونه السياسة . ولكن ما الذي يهدف اليه الان ؟ قد يتضح الامر لو انه يعمل في الشاطة ، ولكنه لايرتدي بزة رسمية رغم انه اصبح مرتبطا بالسلطة منذ ان تازمت الامور . بل ويقول الناس في المدينة انه لايبارح مكتب رئيس البلدية ويتعاطى الشراب مع رجال البوليس. انه مخبر ، هذا ماكانه . ويميزه في ذلك انه يعرف كل من في المنطقة وعلى بعد خمسة فراسخ منها .

ولم لايفعل ؟ لقد ولد في هذه المنطقة دأب ابيه سيمون ودأب جده. لم لايفعل وقد ذهب الى مدرسة القرية عاري القدمين مثل جوان ؟ بـل وكان يحلو له ، مثله ، ان يهرب من المدرسة ويتجول في المنطقة حيث عرف اسماء المالكين والمستاجرين والعمال المأجورين الذين يعملون هنـا وهناك ، الى ان شب ولبس حذاء وقبعة مصنوعة من اللباد واستقـر في المنطقة .

كانت كارمن اول من استيقظ على صوت الطلقات وتبعها جـوان . ثم بدأ الطفل يبكي ، وكان النهار قد بدأ يبزغ حيث بدا اثاث الغرفة واضحا . حاول ان يقدر الوقت في تلك اللحظة بينما كان يقفز من فراشه لاشك ان الساعة الان الخامسة تقريبا .

تكررت الطلقات وكانت تقترب في هذه المرة حين انتهى جوان مـن ارتداء بنطاله وثبت حزامه ثم اسرع نحو الباب . لقد اصاب اذن في تقدير الوقت . كانت السماء قد بدات ترسل ضوءها الفضي على الحقول وقال لنفسه دون تفكير : « نعم ، انها الخامسة ، سيكون هذا يومـا لطيفـا .

واعلن صرير مفاصل البوابة الخارجية ان هناك من يدخل ، وتقدم رجلان عرفهما جوان على الفور . كان اريفالو احدهما ، اما الثاني فهو رجل البوليس ذو العصا الذي سبق ان صادفه جوان في الصيدلية .

اذن ، صدق انذار اريفالو . لقد مر اثنا عشر يوما منذ زيارتـه الاخيرة ، وقد جرت الامور كما كان يبتغي لها . لقد قال له :

« خلال اسبوع .. غادر المكان خلال اسبوع ، ان هذا هو خيـر ماتفعله .. والا !... »

هذا هو اريفالو اذن ومعه القانون في هذه المرة .

اطلق رجل البوليس عيارا ناريا اخر في الهواء بينما كان يقترب مـن جوان وقال : « صوت لطيف ، اليس كذلك ؟! » ستسمع اكثر من هـذا غدا في مثل هذا الوقت اذا لم تغادر هذا المكان . هل تفهم ذلك » ؟

ثم ضغط على زناد مسدسه وصوب ناحية سنابل القمح الرقيقـة ليمتع نفسه بطرافة الموقف . وقف اريفالو خافض الراس دون ان ينظر الى جوان او كارمن التي اتت مسرعة لتستطلع الامر .

تابع رجل البوليس : « لقد اعطيت انذارا عادلا . غادر المكان ارتحل من هنا بسرعة » .

ثم وضع مسدسه في بيته وتابط ذراع اريفالو ومضى ، في تلـك اللحظة ادرك جوان ان انفاس رجل البوليس كانت مشبعة برائحـة البراندي .

✶

ادى كل واجبه . اريفالو والقانون ، جوان وكارمن والطفل . كان البيت يحترق بسهولة مع قرقعة احتراق القش الجاف والخشـب الصلب والاثاث القديم .

ومضت ساعتان او ربما ثلاث ومضى النسيم العذب يهب من الشمال ويتلقف اللهب . وفي ساحة القرية تجمع الناس كانهم في يوم السوق.

شمعة رومانية ضخمة ، ووقف رجل البوليس ذو العصا يتلذذ بيوم العمر . كان اكثر من رفاقه رجال البوليس الاربعة استمتاعا بل ومـن اريفالو الذي اتى ليشهد فيما اذا كان جوان مارتنيز قد ارتحل ام ادرج في عداد العصاة .

✶

توقف رجال البوليس لدى مخزن لينارز عند عودتهم الى البلدة . كان رئيس البلدية هناك حيث استرخى يتكاسل على اكياس الحنطة .

تساءل : « كيف جرت الامور ؟ »

اجاب اريفالو باختصار : « كما تود ، ياصاحب السيادة » .

تساءل رئيس البلدية : « هل كان مارتنيز قد غادر المكان ؟ »

اجاب رجل البوليس : « كلا ! لقد اغلق الاحمق ابواب البيت ومكث في داخله . انك تدرك ذلك .. لم يكن لدينا وقت نضيعه » .

ومضى النفط يتساقط قطرة قطرة من الخزان الى القمح وعبر القمح الى الزجاجة .

ترجمة : حصة منيف

دراسـات ادبيـة

من منشورات دار الاداب

نزار قباني شاعرا وانسانا	لمحيي الدين صبحي
قضايا جديدة في ادبنا الحديث	للدكتور محمد مندور
في ازمة الثقـافة المصرية	لرجاء النقـاش